

## The presence of cognitive linguistics in our ancient Arabic linguistic heritage

Dr. salah houhou <sup>1</sup>

<sup>1</sup>: Mohamed Khidir University - Biskra - Algeria, [s.houhou@univ-biskra.dz](mailto:s.houhou@univ-biskra.dz)

Received:10/10/2024, Published: 18/12/2024

### Abstract:

This article has been devoted to talking in cognitive linguistics about many issues related to the concepts that came within this framework. The researcher initially intended to define cognitive linguistics linguistically and terminologically, then moved on to look at its origins and the factors that contributed to that, while talking about its relationship, that is, the relationship of cognitive linguistics to the sciences other; Such as philosophy, psychology, semantics, computing, and linguistics Neuroticism and other sciences. As for the second part of the article, it was devoted to tracing the cognitive features of the linguistics, rhetorical and grammatical lesson of our ancient scholar, in explanation and analysis, through studying some of the issues that they discussed in their many books.

**Keywords:** Linguistics, cognitive linguistics, neurolinguistics, mental perception, conceptual metaphor, systems theory, understanding, memory, intelligence, generative linguistics.

### حضور اللسانيات الإدراكية في تراثنا اللغوي العربي القديم

د. صالح حوحو <sup>1</sup>

<sup>1</sup>: جامعة محمد خيضر - بسكرة - الجزائر، [s.houhou@univ-biskra.dz](mailto:s.houhou@univ-biskra.dz)

### الملخص:

لقد خُصصَ هذا المقالُ للحديث في اللسانيات الإدراكية عن الكثير من القضايا المتصلة بالمفاهيم التي جاءت في هذا الإطار، فعمد الباحثُ في البداية إلى تعريف اللسانيات الإدراكية لغةً واصطلاحاً ثم انتقل إلى النظر في نشأتها والعوامل التي أسهمت في ذلك مع الحديث عن علاقتها أي علاقة اللسانيات الإدراكية بالعلوم الأخرى؛ كالفلسفة وعلم النفس وعلم الدلالة والحاسوبيات، وعلم اللغة العصبي وغيرها من العلوم، وأما الجزء الثاني من المقال، فقد خُصصَ لتتبع الملامح الإدراكية للدرس اللغوي البلاغي والتحويلي لدى علمائنا القدماء شرحاً وتحليلاً من خلال دراسة بعض القضايا التي ناقشها هؤلاء في كتبهم الكثيرة. **الكلمات المفتاحية:** اللسانيات، اللسانيات الإدراكية، علم اللغة العصبي، التصور الذهني الاستعارة التصويرية، نظرية النظم، الفهم، الذاكرة، الذكاء، اللسانيات التوليدية.

### 1. مقدمة:

تُعد اللسانيات الإدراكية مظهراً من مظاهر التطور الطبيعي للسانيات السوسيرية، أو هي تحوّل Arabic linguistic منطقي طبيعي لما جاءت به اللسانيات العامة من فكر وطرحته على الساحة اللغوية البحثية الحديثة للمعالجة والدراسة، فاللسانيات الإدراكية في تحدياتها البسيطة هي تلك الصورة الذهنية التصويرية لكل مُعطى لساني، وهي توجه لساني مُرتبط بالدراسات البيولوجية التي تهتم بعمل الدماغ ومتابعة العمليات العقلية المختلفة المتصلة بالمعرفة الإنسانية والإدراك، حيث تحوّل اهتمام اللسانيين من دراسة اللغة إلى دراسة الذهن وبعبارة أدق دراسة اللغة في مستواها الذهني باعتبار العقل محل العمليات الأولى للغة البشرية؛ أي أن العقل يُعد المسؤول الأول على صناعة اللغة ولذا قيل في تعريف اللغة الحديث هي - أي اللغة - تشكيل معرفي، ومن خلال هذا التعريف يتحدّد مفهوم اللسانيات الإدراكية أو العرفانية، وقبل المضي سنعتمد هنا إلى الحديث عن مصطلح

اللسانيات الإدراكية أو العرفانية لما له من أهمية بالغة في تحديد معالم هذا الطرح الذي سنحاول فيه النظر في مدى تواجد ملامحه في الدرس اللساني العربي القديم.

## 2. مفهوم اللسانيات العرفانية أو الإدراكية:

اللسانيات الإدراكية مركبٌ لفظي من كلمتين هما: اللسانيات والإدراكية: فاللسانيات لغةٌ مشتقة من اللسان، ونعني بها: "الأصل في جارحة الكلام وآلته، وهو أيضا العضو اللحمي المعروف في الفم وأطلق مصطلح اللسان على اللغة المنطوقة من قبل إطلاق السبب أو الآلة على المسبب، أو ما يحدث بتلك الآلة، وأضيفت اللآحة " ات " من قبيل العلمية كالرياضيات والأسلوبيات،..."<sup>1</sup> وأما اصطلاحاً فهي: "الدراسة العلمية للسان البشري من خلال متابعة ورصد شكله الآني التزامني الذي يُبرز اللغة بوصفها بنى مترابطة الوحدات متعاقبة بشكل منظم ومتناسق يجعل منها نظاماً من العناصر والقيم"<sup>2</sup>

وأما العرفانية، فهي من لفظ عرفان أي؛ العلم، وقد جاء عن ذلك في معجم ابن منظور: "عرف العرفان العلم...عرفه يعرفه عرفة وعرفانا معرفة"<sup>3</sup>

كما عُرف العرفان عند أهل التصوف بقولهم: " اسم من عرف يعرف يدل على العلم بالشيء أو الإقرار بالمعروف وعدم نكران الجميل، ثم استعمله أهل التصوف لما يكون لهم من المعرفة غير آتية عن طريق العقل وغير مثبتة باستدلال أو برهان"<sup>4</sup>، وبهذا يتحدد معنى العرفان كمصطلح يرتبط بمفهوم العلم المطلق.

وأما اصطلاحاً فالعرفان أو العرفانية هي: "المعرفة الحاصلة عن المشاهدة القلبية لا بالعقل ولا بواسطة العقل ولا بفضل التجربة الحسية"<sup>5</sup>، ومن خلال هذا الطرح، يظهر لنا مصطلحان هما: العرفان؛ الذي هو من فعل عرف بكسر الراء، والإدراك؛ الذي هو من فعل أدرك، وقد حاول بعضهم التفرقة بينهما، ومن هؤلاء الراغب الأصفهاني (502هـ)، حيث قال: "إن إدراك الشيء بتفكر لأثره وهو أخص من العلم ويضاده الإنكار، فيقال: فلان يعرف الله، ولا يقال: يعلم الله"<sup>6</sup>، واعتماداً على هذا النص، يمكننا أن نحدد أن الإدراك هو كل معرفة محضة تحصل في الذهن من غير استعمال أية وسائل، أما العرفان؛ فهو عملية ذهنية تُستثمر في كل الوسائل المتاحة للحصول على المعرفة، والإدراك بهذه الصفة هو أخص من العرفان أي؛ العلم، وعلى هذا الأساس، ظهرت اللسانيات الإدراكية باعتبارها توجهٌ علمي فكري أقرب إلى أن يكون مشروع بحث في العلوم الطبيعية، حيث أنها تتغلغل في أغوار الدماغ، وفي كل ما نتج عنه من عمليات ذهنية معقدة كالإدراك والذاكرة والذكاء وإنتاج اللغة وغيرها، حيث أن كل تلك العمليات الذهنية تتم "داخل المخ باعتباره آلة عرفانية - إدراكية - تدخله المعرفة ثم يقوم بمعالجتها"<sup>7</sup>، وعليه؛ يمكن القول أن اللسانيات الإدراكية كمصطلح حديث وفي تحديدها البسيطة هي الدراسة المعرفية العلمية التي محلها الدماغ بوصفه صانعاً للغة، ومنه فهي - أي اللسانيات الإدراكية - تُعالج موضوع اللغة، باعتبارها ظاهرة ذهنية نفسية تُفهم من خلال العلاقات والتداخلات العقلية، وتهتم

<sup>1</sup> شامية أحمد: في اللغة دراسة تمهيدية متخصصة في مستويات البنية اللغوية، دار البلاغ الجزائر، ط1، 2000م، ص: 10.

<sup>2</sup> دبة الطيب عيسى: مبادئ اللسانيات البنوية، دراسة تحليلية ابستمولوجية، تح: عبد الرحمان عمير، عالم الكتب القاهرة مصر، ص: 66.

<sup>3</sup> عز الدين بن عمارة، ربيع بوجلال: مفاهيم لسانية عرفانية، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 3، جامعة محمد بوضياف، ص: 63

<sup>4</sup> عطية سليمان أحمد: اللسانيات العصبية في الدماغ رمزية عصبية عرفانية، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي للنشر، ط1، 2019م، ص: 325.

<sup>5</sup> محمد تقي الدين اليزيدي: الأيديولوجية المقارنة، تر: عبد المنعم الخفاجي، دار المحجة البيضاء بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص: 21.

<sup>6</sup> الأصفهاني الراغب: مفردات ألفاظ القرآن، تح: عدنان داودي، دار القلم دمشق سورية، ط5، 2011م، ص: 560.

<sup>7</sup> عطية سليمان أحمد: المرجع السابق، ص: 324.

اللسانيات الإدراكية بـ: "البنية التصورية، والأفضية الذهنية، ولا مركزية التركيب، وتهتم بالبحث في العلاقات بين اللغة البشرية والذهن، وتدرس كل هذه العلاقات في الواقع الإنساني المعاش، بمعنى آخر دراسة اللغة البشرية في ضوء العمليات الفكرية"<sup>1</sup>.

### 3. شيء عن النشأة:

#### 1.3 عند اللسانيين الغربيين:

معلوم أنه في بدايات القرن الماضي شهدت الدراسات اللغوية تغييرًا كبيرًا إن على المستوى المعرفي أو على المستوى المنهجي، فبعدما أن كانت تعتمد تلك الدراسات على المنهج التاريخي أصبحت تعتمد على المنهج المقارن المعتمد على التتبع الوصفي والطرح الفكري المحض، حتى جاء فرديناند دو سوسير Ferdinand de Saussure "فغير الكثير من المفاهيم التي كانت سائدة، فانقلبت الدراسات اللغوية إلى مرحلة جديدة وُصفت فيها تلك الدراسات بالدراسات اللسانية والتي كان أساسها دراسة اللغة باللغة ولذات اللغة، وهي دراسات جوهرها دراسة بنية اللغة بعيدة عن العوامل المحيطة بها والمؤثرة فيها، وعلى أساس هذا الطرح ظهر العديد من التوجهات اللسانية والمناهج والمدارس التي عكفت على الاهتمام بالطرح اللساني للغة، وكان في أغلبه يعتمد البعد الوصفي للغة هدفاً وغاية، وبقي الوضع على ذلك الحال إلى منتصف القرن العشرين، حيثُ ظهر طرْح جديد يعتمد على الجانب الفكري للغة، أو ما سُمي آنذاك بالبعد المعرفي أو العرفاني للغة.

وكرد فعل على ما جاءت به المدارس اللسانية الوصفية، ظهر ما يسمّى بعلم المعرفة ففي عام 1948م انعقد مؤتمر عن الميكانيزمات المخية للسلوك في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا الذي هو في الأساس مخصص لدراسة كيفية سيطرة الجهاز العصبي على السلوك وعلى هذا الأساس قام علم المعرفة<sup>2</sup> وفي هذا السياق وجدنا تشومسكي يُسهّم برؤيا جديدة تخدّم كثيرًا الطرح المعرفي للغة، وهو طرْح تفسيريّ يربط بين اللغة والفكر، وذلك حين تحدّث عن موضوع إنتاج اللغة، إذ جعل لكلّ اللغات نظامًا واحدًا وحاول التأسيس لتركيب واحد يجمع كلّ لغات العالم باعتبار أنّ اللغة تنقسم إلى بنية سطحية وبنية عميقة تتمركز في الذهن، وتشومسكي في نموذج الأول رأيناهُ أهمل المكوّن الدلالي وركّز كثيرًا على المكوّن التركيبي، ممّا عرضهُ إلى كثير من الانتقادات، الأمر الذي أدى إلى ثورة نقدية تعتمد على الاهتمام كثيرا بالجانب المعرفي للغة، فعدّدت الدراسات التي أنجزت في إطار هذا النقد هي الإرهاصات الأولى لظهور اللسانيات المعرفية والتي سُميت فيما بعد باللسانيات العرفانية والأصح الإدراكية.

وقد ارتبط الظهور الحقيقي لللسانيات الإدراكية بما أنجزه جورج لاكوف ومارك جونسون من أبحاث حول موضوع الاستعارة في إطار علم الدلالة المعرفي، إذ أنّ جورج لاكوف "كشّف عن براهين لغوية تبين أنّ الاستعارة منتشرة في اللغة والفكر اليوميين"<sup>3</sup> وقد بيّن أنّ تصوّر العادي للإنسان مرتبط بالبعد الاستعاري من حيث طبيعته، وحدّد لذلك أمثلة من الواقع، مثال: (الجدال حرب، وأصابت انتقاداتك الهدف، ولقد هُدمت حجّته، ولم أنتصر عليه يوما في جدال...)<sup>4</sup> ولايكوف وهو يُفسّر هذه الاستعارات وغيرها من الاستعارات المستمدة من الواقع اليومي للكلام المتداول بين أفراد المجتمع، حاول أن يقدّم لنا أو قلّ يُحدّد لنا الجانب الاستعاري في إطار هذا الخضم الكلامي، فكان من ذلك أن أسس مفهوما جديدا للاستعارات، وأنواعا كثيرة لها؛ كالاستعارة المفهومية والاتجاهية والنصورية والبنوية وغيرها، وعلى النهج ذاته، نجد جاكندوف قد ألف كتابًا أسماه (علم الدلالة المعرفي)، إذ ناقش فيه قضايا عديدة من بينها: البنية الدلالية والبنية التصورية والأسس العرفانية لعلم الدلالة ومعاني الكلم ونظرية التمثيل...<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> عطية سليمان أحمد: المرجع السابق، ص: 324.

<sup>2</sup> ينظر، محمد طه، علم المعرفة آفاق جديدة في دراسة العقل، عالم الفكر بيروت لبنان، ع 1، مج 35، يوليو - سبتمبر 2006م، ص 178.

<sup>3</sup> جورج لاكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد حجة، دار توبقال للنشر، ط2، 2009، ص: 15.

<sup>4</sup> جورج لاكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، ص: 19.

<sup>5</sup> راي جاكندوف، علم الدلالة والعرفانية، تر: عبد الرزاق بنور، دار سيناترا، معهد تونس للترجمة تونس، د.ط، 2010، ص: 465.

وَعَدَ هذا المؤلف - في نظر الكثير من الباحثين اللسانيين - الانطلاقة الفعلية للسانيات الإدراكية، لأنّه - أي جاكندوف - هو أول من ضبط مصطلحات هذه النظرية وحدّد مفاهيمها وبيّن مناهجها التحليلية. ولم تهتمّ الدراسات اللسانية العرفانية بالاستعارات وعلم الذلالة فقط، وإنما أيضا اهتمت بعلم النحو فتحدّث رونالد لانفاكر Ronald Langacker في كتابه الموسوم (مدخل في النحو العرفاني) عن نظرية النحو العرفاني، والتي وصفها بنحو الفضاء، وقد ترجمته إلى العربية اللساني الأزهر الزناد مُعلّقاً عليه في بداية الترجمة بكلام جيد، حيث يرى الأزهر الزناد أنّ لانفاكر اشهر الباحثين على الإطلاق الذين اهتموا بهذا الفرع من اللسانيات الإدراكية منذ سنوات بعيدة، بحيث يمكن اعتباره هو المؤسس له<sup>1</sup>، وقد احتوى الكتاب على مجموعة من المباحث المهمة نذكر من بينها؛ النحو أداة للترميز وخطاطة الاسم وخطاطة الفعل الأفعال الانقضائية واللائقضية.

كما صدر للباحثين الروسيين زينايدا بوبوفا ويوسف ستيرنين، كتابا بعنوان: (اللسانيات الإدراكية)، ومعلوم أنه كتاب ترجمه إلى العربية الباحث العراقي تحسين رزاق عزيز، وتمت طباعته بالعراق سنة 2018م، وهناك من الباحثين من يرى أنّ هذا المؤلف يُعدّ بمثابة النشأة الحقيقية للسانيات الإدراكية، وتكمن أهمية هذا المؤلف في تسليط الضوء من طرف المؤلفين الروسيين على مختلف الاتجاهات المعاصرة للسانيات المعرفية وعلاقتها بالعلوم الأخرى، ويحددان الآلية الاصطلاحية القطعية للسانيات المعرفية على ضوء المفاهيم التي طوّرها وبيّنان بعض نتائج دراسة هذه المفاهيم ويصفان بالتفصيل الأساليب والتقنيات الخاصة بالدراسات المعرفية والدلالية. هذا الكتاب موجه للسانيين المختصين باللسانيات والعلوم المعرفية وعلم الثقافة واللغويين. وقسمت مادة الكتاب إلى أربعة فصول:

الفصل الأول، حُصص للحديث عن (اللسانيات الإدراكية في علم اللّغة المعاصر)، تطرقا فيه لمبحث العلم الإدراكي واللسانيات الإدراكية، ومبحث الاتجاهات الرئيسية في اللسانيات الإدراكية الحديثة ومبحث الملامح الرئيسية للمنهج الإدراكي الدلالي لدراسة اللغة.

والفصل الثاني، حُصص للحديث عن (المكونات الرئيسية للسانيات الإدراكية ومسلّماتها)، تناولوا فيه مباحث: ماذا يعني المفهوم وماهية المجال المفهومي، والمفهوم ومسألة التفكير غير اللفظي، والمجال المفهومي والوعي وأنواعه، و لوحة العالم، والمجال المفهومي والذهنية و لوحة العالم الإدراكية، ومجال المفهوم والفضاء الدلالي للغة و لوحة العالم اللغوية، و الحقل التسموي للمفهوم، والمفهوم والكلية والمفهوم والمعنى، وتركيب المفهوم، وأنواع المفاهيم، وكذلك مباحث: تكوّن المفاهيم وتشكلها وتطورها الجيني والنوعي، والتبويب والسمات الإدراكية التصنيفية والتمييزية، والخصائص القومية للمفاهيم والكثافة التسمية للمفهوم وتكراره.

وأما الفصل الثالث، فقد حُصص للحديث عن (طرائق وأساليب الوصف الإدراكي الدلالي للمفاهيم)، لمعالجة الموضوعات الآتية: مبادئ التحليل الإدراكي-الدلالي للمفاهيم، طرائق وصف المعاني والمفاهيم: أوجه التشابه والاختلاف، بناء الحقل التسموي للمفهوم، الطرائق التجريبية لدراسة المفاهيم، التحقق من نتائج وصف المفاهيم، التفسير الإدراكي، وأخيرا موضوع تمثل المفهوم. أما الفصل الرابع والأخير، فقد حُصص للحديث عن (تجربة التحليل الإدراكي والدلالي المتكامل الشامل)، حيث استرسل الباحثان في الوصف اللساني النفسي لمعنى مفردة الاعتراف، وفي وصف لساني مفهومي لمفهوم اللغة الروسية، كما خصّصا مبحثا حول تجارب الوصف الإدراكي والسميائي للظواهر اللغوية.

وعلى هذا النحو استمرت الدراسات اللسانية الإدراكية في الصدور عبر أنحاء العالم إلى أن انتقلت إلى الوطن العربي، تلقفها اللسانيون العرب باهتمام شديد وأولوها عناية كبيرة، فظهرت نتيجة لذلك دراسات عديدة في هذا الصدد، وسنذكر فيما يأتي بعضها:

### 2.3 عند اللسانيين العرب:

<sup>1</sup> رونالد لانفاكر: مدخل في النحو العرفاني، تر: الأزهر الزناد، دار سيناترا، معهد تونس للترجمة تونس، 2018م، ص: 7.

إنّ الباحث التونسي (الأزهر الزناد)، يُعدُّ من اللسانيين العرب الذين كتبوا في اللسانيات العرفانية بل كان له جهد واضح في هذا السبيل، حيثُ صدر له سنة 2010م كتابًا مُهما تحت عنوان: (نظريات لسانية عرفانية)، وقد كان من أهم مباحثه التي جاءت في إطار موضوع اللسانيات العرفانية:

- (العرفنة وعلومها مدخل تاريخي مفهومي)، وفيه تناول موضوع السيبرنيتية، الحاسوبية والذكاء الاصطناعي، الأنثروبولوجيا العرفانية، علم النفس العرفاني اللسانيات العرفانية، علاقة اللسانيات بالعلوم العرفانية، العرفنة: ماهيتها، اشتغالها ووظيفتها.
- (اللسانيات التوليدية)، وهو جهد لساني، تناول فيه العديد من المسائل ك: النحو الكوني، والنحو الذهني، والأدوية والمعجم الأندوني والنظام الحوسبي.
- (التوليفية)، تطرق فيه إلى مبحث لا مركزية الإعراب، لا اتجاهية الحوسبة، هندسة النحو التصافات (النطقية-الإدراكية، الصوتية-الإعرابية، المفهومية-الإعرابية)، والهندسة الثلاثية المتوازية في المعالجة الذهنية.
- (معالجة الكلام)؛ فقد خصصه للمبحث في نظرية اللّامات، وبنية المعجم المداخل المعجمية وانتظامها، واستعمال الوحدة المعجمية، وتمثيل المدخل المعجمي، وجهاز المعالجة اللغوية ونظرية اللوغونات.
- (النظريات اللسانية المفهومية)، وقد ناقش فيه النظرية اللسانية: طبيعتها ووظيفتها، والنحو التصويري، الدلالة في النحو العرفاني، أبعاد التصوير، بعد ارتكاز المعروض على الأساس، بعد درجة التخصيص، بعد السلم والمدى، بعد البروز النسبي)، وغيرها من المباحث الدقيقة المتعلقة بالمفاهيم الخاصة بخلفية اللسانيات المعرفية.
- (نظرية الاستعارة المفهومية) تضمن هذا المبحث جُهدًا لسانيًا كان حول الاستعارة المفهومية الإسقاط الاستعاري، الإسقاط قوالب من التناسبات الأنطولوجية، مركزية الإسقاط الاستعاري، ثم خلاصة في الاستعارة المفهومية، طبيعتها وبنيتها وتجلياتها.
- (الخطاطة: معالم تاريخية مفهومية)، وقد عالج فيه قضايا الخطاطة العرفانية، نشوؤها واشتغالها الخطاطات العرفانية: نماذج، بالإضافة إلى الحديث عن دور الخطاطات في تكوين المناويل العرفانية.
- (الروابط العرفانية)، وكان للحديث عن الأدوات الرابطة بين العالم المتصور ونظيره الواقعي، والفضاء الذهني، وبناء الأفضية، والروابط بينها.

أمّا الباحث التونسي (عبد السلام المسدي)، فقد حاول أيضا أن يقدم قراءة جديدة وفق المفاهيم المعرفية للغة العربية ولنظام اللسان العربي، وذلك سنة 1986م من خلال عمله المعروف (اللسانيات وأسسها المعرفية)، وكذلك (التفكير اللساني في الحضارة العربية الإسلامية)، وكما هو واضحٌ من خلال عنواني الكتائين، يظهر لنا أنّ الجهد الذي قدّمه المسدي يندرج لا محالة في إطار اللسانيات الإدراكية.

تُعدُّ الباحثة الجزائرية (ذهبية حمو الحاج) من أوائل الباحثين الذين اهتموا باللسانيات الإدراكية حيثُ أنّها وفي سنة 2013م، تنشرُ مقالا في مجلة الخطاب العدد الرابع عشر والتي يصدرها مخبر تحليل الخطاب بجامعة مولود معمري - تيزي وزو - الجزائر، دراسة معنونة ب: (مقدمة في اللسانيات المعرفية)، وهي مُدخلة أكاديمية في إطار أعمال الملتقى الدولي حول (واقع البحوث المعرفية وتحليل الخطاب أيام 11-12-13 مارس 2013م)، وقد عملت الباحثة على الاهتمام بالجانب التاريخي لما صار يُطلق عليه باللسانيات الإدراكية أو العرفانية، إذ أكدت أن البدايات كانت من خلال التوظيف الأمريكي لهذا المصطلح في مجلة Cognitive Science، أو ما وظفه (جاردينر Gardner في 1985م The Mind's New Science)، وأرجعت ذلك إلى وجود مظهرين أمريكيين كان لهما الفضل في ذلك وهما: المظهر السلوكي في إطار النموذج الكلاسيكي للنزعة المعرفية، ومن جانب آخر مظهر النحو المعرفي الذي يستند على نموذج آخر يوصف بالبنائي أو النزعة البنائية، وقد كانت هذه الدراسة إسهاما تاريخيا بارزا يشرح لنا الكيفية التي تلقى بها الدرس اللساني العربي معطيات العلوم المعرفية عموما واللسانيات المعرفية خصوصا. وقد كان للباحث (جعفر بايوش) إسهام جيد في موضوع اللسانيات العرفانية، حيث أنه وفي سنة 2011م قدّم كتابا بعنوان (اللغة العالمية في الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس)، وهي دراسة اندرجت في إطار الدراسات المعرفية اللغوية، حيث عالج فيها

مسائل اللغة وارتباطاتها بالعقل والإدراك، على اعتبار أن اللسانيات تعتبر ثالث الثورات العلمية المعاصرة بعد ثورة تكنولوجيا الطاقات المتجددة والاتصال البصري والاستشعار عن بعد، وثورة في مجال البيولوجيا الجزيئية، وما نتج عنها من تطبيقات في فك الشيفرة الوراثية ADN، وقد حاول الباحث ربط العلاقة بين اللغة والعقل والحاسوب والبيولوجيا كمظهر لساني معقد، مُشيرًا إلى تموقع اللغة العربية في هذا العالم الجديد أمام الزخم المعرفي الهائل. وقد أشار في هذا الصدد إلى العديد من القضايا ذات الصلة المباشرة باللسانيات الإدراكية، فكان من ذلك حديثه عن اللسانيات المعرفية من ناحية المصطلح وتحدياته، بالإضافة إلى مباحث حول (اللسانيات الجديدة ونظرية المرأة الكونية)، واللسانيات التداولية، ومفهوم اللغة العالمية والأنثروبولوجيا. كما تناول بالبحث الخارطة اللسانية في بلاد الأندلس المتنوعة ومتعددة الألسن ودور الحركة العلمية في وضع محددات النسيج اللغوي الجديد، من خلال عامل جمع الكتب وصناعة المعاجم التي عرفت الاتجاه العربي (مدرسة الخليل) والاتجاه الثاني (المعجم العلمي) والاتجاه الثالث (اللغوي العبراني - الترجمة).

بالإضافة إلى حديثه عن (نظرية شجرة الأسباب والجينالوجيا الضائعة)، ورصد جهود علماء الأندلس في تأسيس مفاهيم تنظيرية للغة مفهوماً ووظيفة من خلال آراء ابن حزم بخصوص القرابة السلالية اللغوية، وآراء صاعد الأندلسي المتمثلة في طبقات الأمم اللغوية، وقضية الاستحواذ النمذجي مع تحديد مفهوم النمذجة اللغوية، وظاهرة الإبطل النمذجي (المراجعة الترجمة الأندلسية)، وظاهرة الاقتصاد النمذجي، ثم يأتي في الأخير تناوله لموضوع التعقل وأثره في صناعة اللغة ونظرية السلوك النمذجي والحركة العلمية للغة وعلاقتها بتنامي المعجم اللغوي، وذلك من خلال نظره في البحوث المعجمية المسددة للصناعة المعجمية عند ابن البيطار، وظاهرة التداخل اللغوي والثقافي عند الطبيب ابن زهر، وختم كل ذلك بحديثه عن البحوث التقنية متمثلة في أبي القاسم الزهراوي وموسوعته التشريحية إلى غير ذلك من المسائل اللغوية ذات الطابع المعرفي الإدراكي.

#### 4. استفادة اللسانيات الإدراكية من العلوم الأخرى:

التفكير عملية ذهنية صرفة، يقوم بها العقل على مستوى الدماغ وهو عملية جد معقدة مثله مثل إنتاج اللغة، ما يؤكد أن العقل الموجود على مستوى الدماغ هو المسؤول عن هذه العمليات بشكل عام وخاص، ونعني بذلك إنتاج اللغة في كل مراحلها ومستوياتها إضافة إلى جعل اللغة ذات بُعد اجتماعي، أي؛ وضعها في إطارها التواصلية بين أفراد المجتمع الواحد، فاللغة كظاهرة اجتماعية تقوم بتحقيق التواصل والتفاهم، يقول جنس أوتو هاري سبرسن: " اللغة نشاط إنساني يتمثل من جانب في مجهود عضلي يقوم به الفرد ومن جانب آخر عملية إدراكية ينفعل بها فرد أو أفراد آخرون، واللغة نظام الأصوات المنطوقة، واللغة معنى موضوع في صوت أو نظام من الرموز الصوتية أو ما شابه ذلك"<sup>1</sup>

وبما أن اللغة يتم إنتاجها مرتبطةً بالفكر داخل الدماغ والخلايا العصبية الخاصة بذلك، فقد وجدنا ترابطاً وثيقاً بين علم الأعصاب neuraux العصبون أو الجهاز العصبي من جهة، و اللسانيات linguistique وهي اللغة وكل ما يتعلّق بها من جهة أخرى، وذلك في إطار علم اللغة العصبي وهو علم يهتم بدراسة الظواهر العصبية ذات الصلة بإنتاج اللغة، فهم اللغة، اكتساب اللغة،... وعلم اللغة العصبي علم جد معقد استفاد كثيراً من علوم أخرى كالعلوم العصبية neurosciences اللسانيات linguistiques، العلوم المعرفية sciencesconginitives، علم النفس العصبي neuropsychologie، الإعلام الآلي informatique<sup>2</sup> فجميع هذه العلوم تعمل على تفسير عمل الدماغ البشري أثناء إنتاج اللغة على مستوى الدماغ، ومعلوم أنّ علم اللغة العصبي خُدد له موضوع أساسي يتمثل في الاضطرابات " اللغوية الناتجة عن إصابة أو تليف للشق الأيسر للدماغ باعتبار اللغة من وظائف

<sup>1</sup> محمد إسماعيل بن شهداء: إنتاج اللغة في الدماغ (دراسة في علم اللغة العصبي)، مجلة لسان الضاد، كلية التربية دار السلام، اليمن،

المجلد: 20، العدد: 1، 2015م، ص: 2.

<sup>2</sup> محمد إسماعيل بن شهداء: المرجع نفسه، ص: 86.

نصف المخ الأيسر، والذي يتناول: الحبسة Aphasie، عسر الخط Dysgraphie، العمه Agnosie، عسر الكتابة Dysorthographie، الأبراكسيا Apraxie، عسر الحساب Dyscalculie، عسر القراءة<sup>1</sup> Dyslexie. ويؤكد نعوم تشومسكي Noam Chomsky في هذا الصدد أنّ إنتاج اللّغة يتمّ بوساطة جهاز عصبي موجود في الدماغ، حيث يتمّ فيه الدمج بين اللّغة والفكر، فهو يرى أنّ في الدماغ جزء مسؤولاً عن اكتساب اللّغة يُدعى Language Acquisition Devise وتُختصر بالكلمة اللاتينية: LAD وبهذا يكون للفرد استعداد فطري لاكتساب اللّغة، وأكد أيضاً بأنّ الفرد يولد مزوداً بما اصطلح على تسميته بالقدرة اللغوية أي القدرة على إنتاج اللّغة، كما أنّه يولد مزوداً بما اصطلح عليه بالكفاءة أي الأداء اللّغوي، بمعنى أنّ لكل إنسان هذه المعرفة والكفاءة في دماغه<sup>2</sup> فهو يولد بها ولا دخل للعوامل الخارجية في ذلك، فتشومسكي بهذا التوجه يكون من الأوائل الذين أشاروا إلى الجانب الإدراكي للّغة، وقد تجلّى ذلك خاصّة أثناء حديثه عن اللسانيات التوليدية واللسانيات التحويلية، وموضوع النحو الكلّي أو النحو الشامل، وهي نظرية قائمة بذاتها تقترح بأنّ قدرتنا على تعلّم قواعد اللّغة هي موجودة في الدماغ مسبقاً، هذه النّظرية تقول بأن القدرة اللّغوية تظهر بنفسها بدون أن يتم تعليمها، وأنّ هناك خصائص تشترك فيها جميع اللّغات البشرية، ولتحديد ما هي القدرات الفطرية أو الخصائص التي تشترك فيها جميع اللّغات، فالمسألة لا تحتاج سوى الملاحظة والاختبار، فإن مثل هذه الدراسات التي تهتم بإنتاج اللّغة في الدماغ حاولت جاهدة البحث عن تفسير منطقي لهذه الإشكالية، كما نجد علوماً أخرى تطرقت لهذا التوجه الإدراكي منها:

#### 1.4 علم النفس الإدراكي:

كما استقادت اللسانيات الإدراكية من ما سُمي بعلم النفس الإدراكي، وهو علم ظهر وانتشر عام 1950م، وسمي بالثورة العرفانية رداً على واتسون الذي تخلى عن المنهج الذهني القائم على الاستبطان في علم النفس والدعوة إلى الاهتمام بالسلوك موضوعاً للوصف والملاحظة، وعلم النفس الإدراكي " عمليات تُبنى عن طريق الإدراك والانتباه والذاكرة واللّغة والقصد والنشاط الفكري واللّغوي وكل ما يخص الدماغ البشري وشخصية الإنسان وانفعالاته مما يخول له التجاوب مع سائر الملكات العرفانية"<sup>3</sup>، ومعلوم أنّ بافلوف Pavlov قد نادى بما أسماه المنعكس الشرطي من حيث اعتباره المقوم الأساسي للسلوك البشري، وهذا ما اتخذته مباحث اللسانيات فيما بعد خير مرجعية لدراسة تاريخ اللّغات التي تؤدي إلى دراسة الاستعمال اللّغوي دراسة إجرائية، وذلك حين ربطت بين إنتاج اللّغة كسلوك وبين إطارها الذهني الذي يمثّل مرجعية أساسية على المستوى الفكري للّغة، هذا المستوى الذي لا يمكن أن يتشكّل إلا ضمن نشاط العقل البشري.

وأما الباحث فريدريك بارتلات Frédéric Bartlett الذي له أبحاث في الإدراك والتصور الذهني، فقد وجدناه يقول: " إنّ جميع تلك الظواهر تمثل تعبيراً عن عمليات تعاملية حركية إزاء الوضع الذي يوجد فيه الكائن البشري، وإزاء حاجاته الآنية وتتأسس دائماً على تجاربه الماضية وتتصل بها"<sup>4</sup>، وقد أجرى تجربة قام بها لإثبات رؤيته، قائلاً: " روى قصة من قصص بعض الشعوب الأمريكية الأصلية على عدد من الأشخاص الأوروبيين وطلب منهم استعادتها بأقصى ما يمكن من الدقة، فلاحظ بارتلات أنّهم يملؤون الفراغات في ذلك بعناصر من واقعهم الغربي الأوروبي، وكان تفسير ذلك عندهم أنهم موجهون بمخططات ذهنية حاصلة عندهم في تنظيم الحدث في القصة"<sup>5</sup> ويذهب بارتلات إلى تأكيد البعد الذاتي في تكوين الذاكرة وعمليات التذكر، والذكريات عنده ليست مجرد حفظ لما عايشه الفرد، إنما قد يضيف لها حوادث لم تقع قط، وبهذا يكون الفرد محكوم في تذكره بمخططات ذهنية

<sup>1</sup> محمد إسماعيل شهداء: المرجع السابق، ص: 87.

<sup>2</sup> نعوم تشومسكي: آفاق جديدة في دراسة اللّغة والعقل، تر: عدنان حسين، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2009م، ص: 77.

<sup>3</sup> الأزهر الزناد: النّص والخطاب: مباحث لسانية عرفانية، دار محمد علي للنشر تونس، ط1، 2011م، ص: 24.

<sup>4</sup> الأزهر الزناد: المرجع السابق، ص: 24.

<sup>5</sup> الأزهر الزناد: المرجع نفسه، ص: 24.

مسؤولة في توجه استعادة تلك الذكريات وصياغتها بلغة مغايرة، هذا ما يثبت تداخل العنصر الذهني والنفسي واللغوي عند صياغة أو إعادة صياغة أي نص. **2.4 الذكاء الاصطناعي والإعلام الآلي:**

كما وجدنا اللسانيات بعامة والإدراكية بخاصة قد دأبت على توظيف البرمجيات الحوسبية في العديد من مباحثها، والبرمجيات كل ما يقوم به الذهن البشري والآلة هي المحرك لهذا الذكاء الاصطناعي الذي له علاقة بالفلسفة وبعلم النفس من خلال عنايته بطبيعة المعرفة وعلاقتها بالذهن والجسد، وينقسم الذكاء الاصطناعي إلى قسمين وهما: نظرية الذكاء الاصطناعي في بعديها الفلسفي الذهني والبعد الفلسفي العرفاني العام.

نظرية الذكاء الاصطناعي العملي التطبيقي غايتها غرس الذكاء في حامل مادي يتجسد في الآلة بتمكينها من أدوات الذكاء، فيصبح لها سلوك الكائن الحي، وفي هذين المظهرين يكون ما استقر في البحوث النظرية الصرفة نفسية كانت أو فلسفية أو عصبية بأن يجري صوغها في مناويل حوسبية بها الآلة الذكية، حيث تتجلى الثغرات أو الفجوات وتستكمل لذلك<sup>1</sup>.

### 3.4 الأنثروبولوجيا الإدراكية:

تجدر الإشارة إلى أن الأنثروبولوجيا علم يهتم بالبعد الثقافي أو السياق الثقافي المبني على أساس التنوع المجتمعي والتعدد البيئي والاختلاف التعايشي من محيط إلى آخر، الأمر الذي جعل الثقافة في هذا المستوى منظومات إدراكية جماعية تحدد العلاقة بينها وبين الذهن<sup>2</sup>، والمؤكد أن هذه التباينات الثقافية صارت مجالاً نشطاً للسانيات الإدراكية ومباحثها المتنوعة، وقد تجلّى ذلك في: "دراسة العلاقة بين اللغة البشرية والذهن بما فيها الاجتماعي والمادي والبيئي أي العلاقة بين اللغة وبين الذهن وبين التجربة الاجتماعية والمادية والبيئية"<sup>3</sup>، وفي ضوء ذلك ظهرت العديد من الدراسات الإدراكية الأنثروبولوجية ذات الطابع اللساني.

كما استفادت اللسانيات الإدراكية من علوم أخرى نحن في غنى عن ذكرها هنا، غير أن الأكد أنها - أي اللسانيات الإدراكية - قامت على تضافر واجتماع العشرات من هذه العلوم المرتبطة بالعقل، وقد رفعت بل ألغت كل الحواجز والحدود التي كانت بينها - أي بين هذه العلوم - وقدمت لنا بذلك أطروحة إنسانية جديدة تتعامل مع الواقع اللساني العام كمنتج لغوي إدراكي لا يمكن التفريق أو الفصل بينهما في أي مستوى من مستويات التحليل اللساني، وبالتالي لا يمكن إغفال بأي حال العلاقة الوطيدة بين التصور الذهني والمنظومة اللغوية مع ضرورة النظر إلى اللغة على أنها تشكيل ذهني وليس مجرد أصوات تحمل معاني معينة.

### 5. حضور اللسانيات الإدراكية في تراثنا العربي القديم:

بعد الحديث عن مفهوم اللسانيات الإدراكية وظروف نشأتها وعلاقتها ببعض العلوم الأخرى التي أفادت منها كثيراً، سنحاول فيما تبقى من أسطر البحث والنظر في حضورها في الدرس العربي القديم إذ من المعلوم أن اللسانيات الإدراكية قد جاءت لدراسة الملكة الذهنية والقوى الإدراكية لدى الإنسان وجعلها أساساً في عملية إنتاج اللغة وتحليلها كظاهرة اجتماعية تواصلية مستقيدة من بعض العلوم الأخرى ذات الطابع المعرفي الصرف، وذلك كوسيلة مهمة للوصول إلى تفسير أمثل للغة البشرية كظاهرة تتقاطع فيها العوامل الصوتية والمعنوية والذهنية والنفسية والاجتماعية في آن واحد وواضح جداً أن هذا التوجه الإدراكي قد أثر كثيراً في الدراسات اللسانية المعاصرة بما قدمه لنا من أفكار ورؤى مثلت حلولاً لعدد الإشكاليات التي واجهت وتواجه الدرس اللغوي أو اللساني، ولأن اللسانيات الإدراكية تبحث في موضوع العلاقة بين الفكر واللغة، وتبحث في اللغة كظاهرة ذهنية أو تصور ذهني، فإننا سنخصص الجزء الأخير من هذا المقال للحديث عن حضور اللسانيات الإدراكية في بعض الدراسات البلاغية والنحوية القديمة باعتبار أن علماءنا القدماء وهم يدرسون عديد القضايا اللغوية والنحوية والبلاغية كانوا قد انطلقوا من تصورات ذهنية إدراكية، وقد تجلّى ذلك في كتبهم العديدة بالرغم مما استعملوه من لغة خاصة ببيئتهم ومصطلحات فرضتها عليهم ظروفهم

<sup>1</sup> ينظر، الأزهر الزناد: المرجع السابق، ص: 17.

<sup>2</sup> ينظر، الأزهر الزناد: المرجع نفسه، ص: 18.

<sup>3</sup> الأزهر الزناد: المرجع نفسه، ص: 22.



وأزمنتهم وقد انتقينا للتمثيل على ذلك التوجه بعض المسائل والقضايا التي ناقشها هؤلاء العلماء الأفاضل قديما في كتبهم وذلك على سبيل الذكر لا الحصر، ومن ذلك قضية (اللفظ والمعنى).

### 1.5 قضية اللفظ والمعنى:

تعدّ قضية اللفظ والمعنى من أهم القضايا التي ناقشها علماءنا القدماء في كتبهم، حيث وجدناهم يتحدثون عن ضرورة انتقاء اللفظ المناسب للمعنى المناسب، وهو حديث طويل و متشعب لما له من علاقات وثيقة بموضوعات أخرى، كموضوع حسن النظم إذ لا غرو في أنّ عملية الانتقاء هذه لا تتم إلاّ عن طريق التصوّر الذهني للمعنى المراد من اللفظ المختار، إذن فهي عملية إبداعية صرفة لا تتحقق إلاّ عن طريق حركة ذهنية تصوّرية، وغالبا ما يكون فيها التركيز على الإدراك وما ينتقيه من أطر مناسبة للتعبير، بتحقيق عنصر التلاحم الشكلي، وانتهاء بانسجام الدلالة مع هذا التركيب، يقول ابن جني عن ضرورة العناية بالمعنى: " العرب إنما تُحلّي ألفاظها وتُدبّجها وتشبّثها وتزخرفها عناية بالمعاني التي وراءها، وتوصّلا بها إلى إدراك مطالبها"<sup>1</sup>، وواضح أنّ العناية بالمعنى لا يكون إلاّ بالعقل وما يريده وعلى هذا يمكن تحديد البعد العرفاني في هذا الإطار العملي لنشاط ذهني مصاحب لعملية الخلق تلك، أو لنقل الإبداع إذ لا يتحقق إلاّ عن طريق تناسبات تصوّرية مع المراد من المعنى المدرك من هذه العبارة أو تلك، وأثناء الإشارة إلى المعنى المتضمّن وجب علينا الانتقاة إلى طرفي الخطاب أو المنظومة اللفظية وهما منتج الخطاب من جهة ومتلقيه من جهة أخرى، ونحن بذلك نكون قد وضعنا أيدينا على ملامح عرفانية مُصاحبة لهذا الخطاب أو لغيره، بما تمثّله ألفاظه ومعانيها من روائز ذات بعد ذهني مُحدّدة لأغراضه.

وغير بعيد عن ذلك يقول الجاحظ: " ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه، متخيرا من جنسه وكان سليما من الفضول، بريئا من التعقيد، حُبب إلى النفس، واتصل بالأذهان، والتحمّ بالعقول وهشت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب،..."<sup>2</sup>، والجاحظ بهذا يحدّد لنا وجوب انتقاء اللفظ ليكون متناسبا مع معناه، وهو انتقاء لا يتحقّق إلاّ عن فهم جيّد لمعنى اللفظة، وفي الوقت نفسه عن فهم طبيعة الموقف، وهو لا يتحقّق - أي هذا الانتقاء - إلاّ بتصور واضح يستقر لدى صاحب النصّ وذلك حتّى يكون مستحقا لاستحسان الأذهان والتحام العقول واستطاف القلوب.

وأما المرزوقي (ت 421هـ) وهو يحدّثنا عن معايير المعنى وكيف يجب ضبطه داخل سياقه فنجده قد اتجه هذا الاتجاه العرفاني، حيث يقول: " فعيار المعنى أن يُعرض على العقل الصّحيح، والفهم النَّاقب، فإذا انعطف عليه جنبنا القبول والاصطفاء، مُستأنسا بقرائنه، خرج وافيا"<sup>3</sup>، فهو قد أرجع إيفاء المعنى وتماحه وصحته إلى تقبله من العقل تقبّلا حسنا، ووقوعه في النفس وقوعا طريفا واستقراره في الفهم استقرارا جيّدا، وبغير هذه القرائن الذهنية لا يكون المعنى صحيحا، ولا مناسباً لما وُضع له وبمثل هذه النصوص وغيرها المبنوثة في كتب القدماء، يمكننا أن نقرّر أنهم كانوا في أبحاثهم غالبا ما يطلقون أحكامهم التحليلية من منطلقات ذهنية تصوّرية، خاصّة وهم يحاولون تبرير توجهاتهم وقناعاتهم بأدلة منطقية لا يمكن للعقل أن يرفضها، الأمر الذي طبع تلك الأبحاث بشيء من الجديّة استمرت طيلة عصور كثيرة.

### 2.5 نظرية النظم:

إنّ إنتاج اللّغة لا يتحقّق أبدا إلاّ عن طريق التصوّر الذهني، إذ لا يمكن الفصل بين الصّورة الصّوتية لها وبين الصّورة الذهنية، فهما وجهان لعملة واحدة، وعليه فإنّ التحليل المعرفي لأي نصّ في مستواه اللّغوي لا بدّ له - حتّى يُحقّق هدفه - أن ينطلق مستجيبا لهذه المعطيات ولذا بُنيت النظرية اللّغوية على أساس الاهتمام بالمعنى أولا، ثمّ الانتقال إلى اصطفاء اللفظ المناسب، وإذا قلنا الاهتمام بالمعنى فواضح أنّ شرطه وقوعه في النفس موقعا حسنا، ولا يكون ذلك إلاّ إذا امتثل للإدراك الواقع في الذهن، يقول

<sup>1</sup> ابن جني: الخصائص، ت: محمد علي النجار، الهيئة العامّة لقصور الثقافة القاهرة، مصر، ج1، ص: 33.

<sup>2</sup> الجاحظ: البيان والتبيين، تج: محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة، القاهرة مصر، 7، 1998م، ج2، ص: 8.

<sup>3</sup> محمد الطاهر بن عاشور: شرح المقدّمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، تج: ياسر بن حامد المطيري، دار المنهاج للنشر والتوزيع الرياض السعودية، ط1، 2010م، ص: 35.

ابن السراج في ذلك: " أصل البلاغة هو تركيب المعاني القائمة في النفس فإذا كملت تركيباً ونظاماً صارت في النفس كلاماً فإذا احتيج إلى التعبير والدلالة على ما في الضمير رُكبت عليها ألفاظ منظومة<sup>1</sup>، وفي ضوء هذا الانتقاء للمعاني والاصطفاء للألفاظ مما يُحقق تناسب المراد، يتجلى البعد العرفاني في عملية الخلق اللغوي الذي أُصطلح على تسميته فيما بعد بنظرية النظم التي نُسبت للإمام الجرجاني.

ومعلومٌ أنّ استعمال وتوظيف اللّغة في أي مجال لا يتحقّق إلّا إذا سبق تمثّلها في الذّهن، إذ يُعدّ إنتاج اللّغة المعبر بها مرحلة متأخرة عن وجودها كتصور ذهني على مستوى الدّماغ، فكلّ لفظ يكون نابعا عن الوجود النفسي له، وكلّما كان هذا الوجود مستقيماً معتمداً على المعرفة الصحيحة، كانت اللغة المعبر بها أقرب إلى الصواب عمّا يجول في الذّهن، ويؤكد الجرجاني في هذا الصّدّد أنّ النظم عملية عقلية تستند إلى آليات ذهنية ومكانيزمات عرفانية يقوم بها العقل في تعليق الكلام مع بعضه، يقول: " ليس الغرض بنظم الكلام أن توات ألفاظها في النطق، بل إن تتأسقت دلالتها وتلاقت معانيها مع الوجه الذي اقتضاه العقل، وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالي الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وأنه نظير الصياغة والتحرير والتقويف والنقش وكل ما يقصد به التصوير<sup>2</sup>، والجرجاني بهذا القول يُثبت التوجه العرفاني لنظرية النظم، حيث يعزو نظم الكلام إلى تناسق الدلالات وتلاقي المعاني مع مقتضيات التصور الذهني لكل ما يُنظم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الجرجاني وهو يبسط القول في نظرية النظم وجدناه يضعها في إطار معرفي صرف، حيث يقول: " ليس النظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرّسوم التي رسمت لك، فلا تُخل بشيء منها<sup>3</sup>، ولا يكون وضع الكلام أو معرفة قوانينه، وإدراك المراد منه، كما لا يكون حفظ رُسومه وتجنب الإخلال بها إلّا بوساطة إطار عقلي وتصور ذهني يتحكّم في كلّ ذلك، ممّا يُضفي على عملية تنظيم الكلام مسحة عرفانية صارخة لا يمكن لأحد تلافيتها، وإلّا كان الكلام هذرا لا فائدة منه.

ويقول الجرجاني في موضع آخر وهو يحدثنا عن ترتيب الألفاظ في الكلام ما نصّه: " اعلم أنّ ما ترى أنّه لا بدّ منه ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاصّ، ليس هو الذي طلبته بالفكر ولكنّه شيء يقع بسبب الأول ضرورة، من حيث إنّ الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنّها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النّفس، وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النّطق...<sup>4</sup>، فالجرجاني يؤكد أنّ المعاني وليدة الفكر وهي التي تستوجب ألفاظاً معينة باعتبارها أوعية للمعاني، فما الألفاظ إلّا تابعة للمعاني وخدمة لها، والمخدوم أقوى رتبة من الخادم كما يقول ابن جنّي<sup>5</sup>، وعلى هذا فإنّ المعاني تقع أولاً في النّفس قبل صوغها أصواتاً، ولا يمكن أن يُفسّر كلّ ذلك إلّا إذا وُضع في إطار معرفي نفسي، يقول البحيري في هذا الصّدّد شارحاً قول الجرجاني: " فكما أنّ قصد المتكلم هو الذي أنتج النّص اللغوي، فإنّ النّص اللغوي هو السبيل الوحيد للكشف عن قصد المتكلم، فلم يكن الترتيب إذاً سبيلاً للتصور ومُعينا على الإفهام؛ إذ إنّ تأليف الألفاظ راجع حتماً إلى تأليف الدلالات<sup>6</sup>، والجرجاني وإن كان يُولي أهمية كبيرة لترتيب الألفاظ، فإنّه في مقابل ذلك لا ينكر أهمية المعاني الواقعة في النّفس وما المعاني عنده إلّا دلالات مخترنة في الذّهن، يريد المتكلم إبلاغها إلى السّامع، إذ لا يتصور اختيار موضع لفظة إلّا إذا أدركت معناها، فإدراك المعاني هو من يفرض عليك ترتيب الألفاظ الدالة عليها، وذلك لأنّ العلم بواقع المعاني في النّفس ووجودها في الذّهن

<sup>1</sup> ابن السراج: جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتّاب، تح: محمد قرقران، الهيئة السورية العامّة للكتاب، سورية، 2008م، ص: 299.

<sup>2</sup> الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه: محمود شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة، مصر، ص: 50.

<sup>3</sup> الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص: 81.

<sup>4</sup> الجرجاني عبد القاهر: المصدر نفسه، ص: 52.

<sup>5</sup> ابن جنّي: المصدر السابق، ج1، ص: 33.

<sup>6</sup> سعيد البحيري: دراسة لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، مصر، 1997م، ص: 184.

ينجُم عنه علمُ بمواقع الألفاظ الذّالة عليها، وعليه يمكن القول إنّ ترتيب الألفاظ في النّطق ما هو إلاّ نتيجة حتمية لترتيبها في العقل.

### 3.5 الاستعارة التّصوّرية:

لا شكّ في أنّ الاستعارة يتعدّى مجالها المجال اللّغوي، فهي تمتد لتشمل المستوى التّصوري لتفكير الإنسان وكيفية تمثله للمدركات، فليست الاستعارة مجرد صناعة لغوية ذات طابع بلاغيّ تصويري، إذ إنّ اللّغة في بنيتها الأصلية تستفيدُ كثيرا من الاستعارات بمختلف أنواعها ما دامت مؤسّسة على تلك التّصورات الذّهنية الخادمة للخطاب، سواء الخاص أو الشّعري بعامّة ولهذا عرّفت الاستعارة في هذا الإطار بأنّها: "سلسلة نسقية من التّناظرات أو الروابط عبر مجالات مفاهيمية، يتم بواسطتها تأسيس مجال هدف"<sup>1</sup>، إذ لا يمكن تصوّر استعارة ما إلا في إطار مفاهيمي معيّن ينطلق من أطر ذهنية صرفة تكون قد تأسّست لدى صاحب الخطاب قاصدا منها خدمة نصّه بما يضعه فيه من تصوّرات تكون قد تشكّلت لديه قبل وضعه اللّغة ويتجلّى ذلك خاصّة عند مناقشة موضوعات حسّاسة ذات طابع عقلي صرف، كموضوعات فلسفة الموت والحياة والقضاء والقدر، والغيب... وغيرها ممّا يكون فيها للعقل حضور بارز فمثلا استعارة (الحياة رحلة) هي استعارة تقوم على التّصوّر الذّهني لما في الحياة من مشقّة وتعب، وليس على وجود وجه شبه بينهما، وهذا ما راحت اللسانيات الإدراكية تؤسّس له وتتشبّث به بطرحها المستمرّ للاستعارة التّصوّرية.

وفي ضوء ما سبق وجدنا مقولات كثيرة لعلمائنا وبلاغيينا القدماء في كتبهم، مقولات تربط بين الاستعارة كشكل بلاغيّ تعبيريّ وبين إطارها العقلي ومن هؤلاء (الجرجاني)، الذي كان لا يقبل أيّة استعارة إلا إذا قامت على استحسان العقل، وترتفع قيمتها بقيمة ارتباطها بالتّصوّر الذّهني عند المتكلّم، فالاستعارة عنده قائمة على عبقرية الإنسان، يقول الجرجاني "ومثال الأصل الثاني وهو أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس ثم الشبه عقلي، قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم وخضراء الدمن"، الشبه مأخوذ للمرأة من النبات وكلاهما جسم إلا إنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته ولا ما شاكل ذلك ولا ما يسمى طبعا كالحرارة والبرودة المنسوبتين في العادة إلى العقاقير وغيرها ما يسخن بدن الحيوان ويبرد بحصوله فيه ولا شيء من هذا الباب، بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسناء في المنبت السوء، وبين تلك النابتة على الدمنة وهو حُسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن وطيب الفرع مع خبث الأصل"<sup>2</sup>. فالجرجاني بهذا الكلام يناهز بالاستعارة على أن تكون قد بُنيت على أساس أوجه الشبه بين المرأة والشجرة الخضراء، بل يجعلها مرتبطة - أي الاستعارة - بروابط عقلية تُفهم من خلال السّياق؛ إذ المقصود كما يوضّح بهذه الاستعارة (حُسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن، وطيب الفرع مع خبث الأصل)، والمعنى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يحذّر المسلم من الزّواج من المرأة الحسناء سيئة الأخلاق، وهي استعارة يتجلّى فيها البعد العرفاني بوضوح، إذ لا يمكن فهمها إلا إذا وُضعت في إطار تصوّر ذهني قبليّ معيّن يكون قد تشكّل لدى هذا الفرد المسلم من خلال توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم.

ويقول الجرجاني في موضع آخر: "ويظهر من ههنا أصل آخر، وهو أن اللفظة الواحدة تستعار على طريقتين مختلفين، ويذهب بها في القياس والتشبيه مذهبين؛ أحدهما يفضي ما تناله العيون والآخر يوميّ إلى ما تمثله الظنون، ومثال ذلك قولك: " نجوم الهدى" تعني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم فإنه استعارة توجب شَبها عقليا، لأن المعنى أن الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتدوا به في الدّين كما يهتدي السارون بالنجوم، وهذا الشبه باق لهم إلى يوم القيامة فبالرجوع إلى علومهم وآثارهم وفعالهم وهديمهم تتال النجاة من الضلالة، ومن لم يطلب الهدى من جهتهم، فقد حُرِم الهدى ووقع في الضلال؛ كما أن من لم ينظر إلى النجوم في ظلام الليل ولم يتلق دلائنها على المسالك التي تقضي إلى العمارة ومعادن السلامة وخالفها وقع

<sup>1</sup> إيلينا سمينو: الاستعارة في الخطاب، تر: عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، المركز القومي للترجمة القاهرة مصر، 2016م، ص: 29.

<sup>2</sup> الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة بيروت لبنان، ص: 51.

في غير الطريق. وصار بتركه الاهتداء بها إلى الضلال البعيد والهلك المبيد، فالقياس على النجوم في هذا ليس على حد تشبيه المصابيح بالنجوم أو النيران في الأماكن المتفرقة، لأن الشبه هناك من حيث الحس والمشاهدة، لأن القصد إلى نفس الضوء واللعمان والشبه هنا من حيث العقل لأن القصد إلى مقتضى النجوم وحكمه وعائده ثم ما فيها من الدلالة على المنهاج، والأمن من الزيغ عنه والاعوجاج والوصول بهذه الجملة منها إلى دار القرار ومحل الكرامة<sup>1</sup> فالإحاح (الجرجاني) في كل مرة على وجوب الالتفات إلى الشبه العقلي الذي بُنيت عليه الاستعارة والابتعاد بها عن الشبه الحسي دليل واضح على أن (الجرجاني) يُعطي للاستعارة مضمونا فكريا ينجُم عن التصور الذهني للمتلقى أثناء تلقيه توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم، إذ من دون هذا التصور الذهني لا يمكن فهم كلام النبي ولا استيعاب توجيهاته بشكل صحيح، كما يشرحه (الجرجاني) في قوله السابق: (والشبه هنا من حيث العقل لأن القصد إلى مقتضى النجوم وحكمه وعائده، ثم ما فيها من الدلالة على المنهاج والأمن من الزيغ...)

#### 4.5 التقعيد النحوي:

وأما إذا انتقلنا إلى الدرس النحوي القديم وجدنا أنه عملية ذهنية صرفة، إذ لا يخفى على أحد أن علماءنا القدماء وهم يضعون القواعد النحوية كانوا قد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى، بالرغم من أنهم قد انطلقوا من منطلق واحد وهو ذلك التصور الذهني الذي حدّدوا من خلاله مفهوم اللغة وضرورة ارتباطها بأسس قواعدية تكون موافقة للعقل، ولعل سيبويه من خلال مؤلفه الكتاب كان أول هؤلاء حيث كان قد وضع تصورا عاما لقواعد اللغة العربية، وأخضع طرحه إلى منهج فكري محدّد بناه في البداية على أساس توجه فكري مميز، حيث وجدناه قد رتب أبواب كتابه وقسم موضوعاته تقسيما عقليا لافتا، إذ ظهر أن هذا المنهج أشبه بسلسلة ذات حلقات متتابعة متصلة، لا يمكن تقديم حلقة على أخرى أو استبدال غيرها بها أو الاستغناء عنها، فكانت الأبواب متسلسلة وموضوعة على أساس منطق عقلائي يُجسد بوضوح الطرح المعرفي للتقعيد النحوي، المستمد من تصور ذهني لا يمكن إنكاره، وقد تضافرت آراء عديدة على إثبات البعد الفكري والعلمي لسيبويه أثناء تقعيده للنحو.

تقول الباحثة هدى أحمد الحمزي: " المتأمل في كتاب سيبويه يجد صورة مختلفة لقضايا النحو وطبيعة عرضها وتناولها، وهي صورة لا توحى بأنه مؤلف قصد بمؤلفه تعليم العربية لغير العرب من الأمم التي دخلت الإسلام، وإنما هو كتاب في الأسس المعرفية للنظرية النحوية العربية؛ لأنه كما يرى الغربيون أمثال تشومسكي كتاب يبحث في النظام الذهني اللغوي<sup>2</sup> ويقول عبده الزجاجي: " النحو العربي كما تمثل لدينا هو ذلك النحو الذي نشأ في الفترة الحيوية من الفكر العربي الإسلامي في القرن الثاني للهجرة، كما وصل إلينا متمثلاً في كتاب سيبويه، وهذه الفترة بالذات هي التي تمثل لنا تصورا حقيقيا لمنهج التفكير العلمي<sup>3</sup>"

ويقول الدكتور حسن خميس الملخ: "عندما ظهر كتاب سيبويه قبيل أواخر القرن الثاني الهجري تجربة عملاقة في التفكير النحوي والصرفي والصوتي، أدرك النحاة آنذاك أنه كتاب في تعليم التفكير العلمي في اللغة<sup>4</sup>"  
ويقول محمد سعيد الغامدي: " إن النحو على أيدي أوائل النحاة قد قام على دراسة العربية دراسة علمية بالوصول إلى القواعد الذهنية المنتظمة في عقول الجماعة اللغوية<sup>5</sup>"

<sup>1</sup> الجرجاني: المصدر السابق، ص: 53.

<sup>2</sup> هدى الحمزي: القيمة العلمية لكتاب سيبويه، مقال في مجلة الأندلس كلية اللغات جامعة صنعاء اليمن، العدد 34، سبتمبر 2020م، ص: 240.

<sup>3</sup> عبده الزجاجي: النحو العربي واللسانيات المعاصرة، مجلة البحث اللساني واللسميائي منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم: 6، مايو 1981م، ص: 155.

<sup>4</sup> حسن خميس الملخ: التفكير العلمي في النحو العربي، الاستقراء التحليل التفسير، دار الشروق غزة عمان الأردن، ط1، 2002م، ص: 38.

<sup>5</sup> محمد سعيد الغامدي: اللغة والكلام في التراث النحوي العربي، مجلة عالم الفكر جامعة الملك عبد العزيز جدة السعودية، المجلد: 34، العدد: 3، يناير/ مارس 2006م، ص: 85.

وواقع الحال أنّ هذه الأقوال وغيرها تضافرت لتثبت لنا البعد الفكري والعرفاني المتجلي في كتاب سيبويه عند تعييده النّحو؛ إذ من الضروري أن نشير أنّ سيبويه كان يصر دائما على الإطار المعرفي العقلاني لما يطرحه من مسائل ويناقشه من قضايا كقضايا الاستشهاد النّحوي، حيث كان لا يقبل من الشواهد إلا ما وافق العقل والمنطق السليم، وقد تجلّى الإطار المعرفي أيضا خاصّة في استعماله القياس كدليل عقلي، وكلامه عن العلة، وتقسيم الزّمن، وحديثه عن الفرع والأصل وغير ذلك من المسائل، ففي موضوع القياس كدليل عقلي وجدناه يناقش العديد من القضايا النّحوية مثبتا صحة أحكامها عن طريق القياس، ومن ذلك المسائل الآتية:  
امتناع الجرّ في الأفعال قياسا على امتناع الجزم في الأسماء.  
بناء الأفعال الماضية على الفتح قياسا على الأفعال المضارعة.  
رفع نائب الفاعل قياسا على الفاعل.

جواز تقديم خبر كان قياسا على جواز تقديم المفعول على الفاعل، إلى غير ذلك من القضايا النّحوية التي استعمل فيها سيبويه القياس باعتباره عملية عقلية معقّدة أساسها وجود علاقة مشتركة بين المقيس والمقيس عليه للوصول إلى حكم ثابت يقبله العقل، مما يثبت أنّ اعتماد سيبويه عليه ما هو إلا تشبّثا شديدا منه بهذا الدليل العقلي، الأمر الذي يضيف على تفكيره ومؤلفه بعدا عرفانيا بيّنا، وبهذا يكون سيبويه وعلى غرار علمائنا القدماء كالجرجاني وابن السراج وابن جنّي والجاحظ، وغيرهم قد نهج نهجا علميا معرفيا وذلك أثناء تنظيره للنّحو العربي كلّ ذلك كان في إطار عقلي منطقي مما يمكن إدراجه ضمن التوجه الفكري واعتباره بذرة حقيقية للسانيات الإدراكية في تراثنا العربي القديم.

#### 6. قائمة المراجع:

- 1/ أحمد شامية، (2000م)، في اللغة دراسة تمهيدية متخصصة في مستويات البنية اللغوية، الجزائر، دار البلاغ، ط1.
- 2/ دبة الطيّب عيسى، (2001م)، مبادئ اللسانيات البنوية- دراسة تحليلية ابستمولوجية، الجزائر، (2001م)، دار القصبه للنشر الجزائر.
- 3/ بن عمارة عز الدين، بوجلال ربيع، مفاهيم لسانية عرفانية، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 3، (د ت).
- 4/ عطية سليمان أحمد، (2019م)، اللسانيات العصبية في الدماغ رمزية عصبية عرفانية، القاهرة-مصر، (2019م)، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، ط1.
- 5/ اليزيدي محمد تقي الدين، (1992م)، الأيديولوجية المقارنة، تر: عبد المنعم الخفاجي، لبنان، (1992م)، دار المحجة البيضاء، ط1.
- 6/ الأصفهاني الراغب، (2011م)، مفردات ألفاظ القرآن، تح: عدنان داودي، دمشق-سورية، (2011م)، دار القلم، ط5.
- 7/ طه محمد، علم المعرفة آفاق جديدة في دراسة العقل، عالم الفكر مج35، ع1، يوليو- سبتمبر، (2006م).
- 8/ لايكوف جورج وجونسون مارك، (2009م)، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، المغرب، (2009م)، دار توبقال للنشر المغرب الرباط، ط2.
- 9/ جاكندوف راي، (2010م)، علم الدلالة والعرفانية، تر: عبد الرزاق بنور، تونس، (2010م)، دار سيناترا، معهد تونس للترجمة.
- 10/ لانفاكر رونالد، (2018م)، مدخل في النّحو العرفني، تر: الأزهر الزناد، تونس، (2018م)، دار سيناترا، معهد تونس للترجمة تونس.
- 11/ بن شهداء محمد إسماعيل، إنتاج اللغة في الدماغ (دراسة في علم اللغة العصبي)، مجلة لسان الضاد، المجلد: 20، العدد1، (2015م).
- 12/ تشومسكي نعوم، (2009م)، آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، تر: عدنان حسين، دبي-الإمارات، (2009م)، دار الحوار للنشر والتوزيع.

- 13/ الزناد الأزهر، (2011م)، النَّص والخطاب: مباحث لسانية عرفانية، تونس، (2011م)، دار محمد علي للنشر.
- 14/ ابن جنّي، (د ت)، الخصائص، ت: محمد علي النّجار، مصر، (د ت)، الهيئة العامّة لقصور الثقافة.
- 15/ الجاحظ، (1998م)، البيان والتبيين، تح: محمد عبد السلام هارون، مصر، (1998م)، مكتبة الخانجي للطباعة، ط7.
- 16/ بن عاشور محمد الطاهر، (2010م)، شرح المقدّمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، تح: ياسر بن حامد المطيري، السعودية، (2010م)، دار المنهاج للنشر والتوزيع الرياض السعودية، ط1.
- 17/ ابن السراج، (2008م)، جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتّاب، تح: محمد قزقان، سورية، (2008م)، الهيئة السورية العامّة للكتاب.
- 18/ الجرجاني عبد القاهر، (د ت)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، القاهرة، مصر، (د ت)، مكتبة الخانجي.
- 19/ البحيري سعيد، (1997م)، دراسة لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مصر، (1997م)، مكتبة زهراء الشّرق.
- 20/ سمينو إيلينا، (2016)، الاستعارة في الخطاب، تر: عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، مصر، (2016م)، المركز القومي للترجمة.
- 21/ الجرجاني، (1991م)، أسرار البلاغة في علم البيان، بيروت-لبنان، (1991م)، دار المعرفة، ط1.
- 22/ الحمزي هدى، القيمة العلمية لكتاب سيبويه، مقال في مجلّة الأندلس كآية اللّغات جامعة صنعاء اليمن، العدد 34، (2020م).
- 23/ الرّاجحي عبده، النّحو العربي واللّسانيات المعاصرة، مجلّة البحث اللّساني والسميائي منشورات كآية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط- سلسلة ندوات ومناظرات، رقم: 6، (1981م).
- 24/ الملح حسن خميس، (2002م)، التفكير العلمي في النّحو العربي- الاستقراء التّحليل التّفسير، الأردن، (2002م)، دار الشروق غزة، ط1.
- 25/ الغامدي محمد سعيد، اللّغة والكلام في التراث النّحوي العربي، مجلة عالم الفكر جامعة الملك عبد العزيز جدّة السعودية، المجلّد: 34، العدد: 3، (2006م).